بينات أسلوبية في القرآن الكريم

د.أحمد بن قاسم بن علي الزمر

الاستاذ المشارك بقسم اللغة العربية كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي الإمارات العربية المتحدة، وكلية اللغات بجامعة صنعاء

- من مواليد عام ١٣٧٤هـ بمدينة تعز باليمن.
- تخرج في كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٣٩٩هـ.
- نال شهادة الماجستير من قسم الدراسات العليا بكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية عام ١٤٠٤هـ بأطروحته:"**الشعر اليمني المعاصر بين الأصالة والتجديد** "، (مطبوع). كما نال شهادة الدكتوراه من قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة عين شمس عام ١٤١٤هـ بأطروحته : "**ظواهر أسلوبية في الشعر الحديث في اليمن: دراسة وتحليل**" (مطبوع).
- من أعماله المنشورة: "**معالم الأسلوبية عند ابن الأثير في كتابه المثل السائر**"، "**منهج التحليل الأسلوبي: منطلقات وملامح تجديدية** ".
- البريد الشبكي: alzumur62@hotmail.com

الملخص

يشكل هذا البحث قاعدة منهجية من قواعد فنِّ التحليل الأسلوبي للنصوص الأدبية، حيث ركزت فيه على تحليل جملة من النصوص القرآنية، تبعًا لبيِّناتٍ تميز بها النص القرآني؛ وهذا التميز جعله فريدًا في عالم النصوص الإبداعية؛ ولذلك فإن البينات المدونة في هذا البحث تعد بينات تفرَّد بها القرآن الكريم.

كما أن تناول البُنى العميقة ودلالتها سيكون ولا شك عصيًّا إلى حد كبير حيث يجعل الباحث في هذا النص حذرًا من أن يقع في التأويل أو التحريف؛ ولذا فقد حرصت عند تحليل كل آية أو نص أن أعود إلى المصادر والمراجع وتحري الصواب قدر الإمكان، ولست أزعم أن النص القرآني مغلق أو أنه ليس لأحد الحق في أن يُعمِل عقله في فهمه وفقًا للقواعد المتفق عليها بين علماء اللغة والمفسرين؛ بل أذهب أبعد من ذلك فالنص القرآني مفتوح ويحتمل وجوهًا متعددة وفقًا لقواعد اللغة التي نزل بها؛ إيجازًا وإطنابًا، تقديمًا وتأخيرًا، حذفًا وذكرًا، تعريفًا وتنكيرًا، واختيار الألفاظ وتشخيص المعاني المجردة والقدرة على تصريف القول، فهذا التعدد في البينات الأسلوبية أدَّى في حقب كثيرة إلى تعدد أفهام العلماء للنص الواحد؛ ومن ثم استنتاج مسائل متعددة، وقد تكون متباينة أحيانًا، تبعًا لفهم قارئ النص واجتهاده، والتمعن في أدوات القراءة وآليات التفكير وقدرات القارئ اللغوية والثقافية والتحليلية والبيانية.

ومن ثَم فقد أفدت من مصادر متعددة، ونهلت من موارد متنوعة، منها كتب التفسير والبلاغة وإعجاز القرآن القديمة منها والحديثة، ثم أعملت تفكيري في النظر والبحث، مستعينا بالله ومستهديا بآليات التحليل الأسلوبي ومناهج القراءة في المقارنة والاستنتاج والغوص وراء المعاني.

وأحمد الله الذي أخذ بيدي فإن أحسنت فمن الله وإن أسأت فمن نفسي.

وما توفيقي إلا بالله.

المقدمــة

البحث في القرآن وتذوق نصوصه وتحليل مستوياته اللغوية بقدر ما فيه من المتعة والجمال؛ فإن فيه من الهيبة والجلال ما فيه، وربما تكمن الصعوبة في تحليل النص القرآني في إيحاءاته العميقة ومعانيه الدقيقة التي تقتضيها بنيته التركيبية وتنوع أساليبه وتعدد أدواته التعبيرية.

ولعل هذا العامل المزدوج بين المتعة والهيبة هو الدافع الأساس لاختيار هذا البحث واقتحام العقبات المؤدية إليه، وقد حاولت السير في مغارات وعرة للبحث عن أهم البينات الأسلوبية، بعد غربلة عدد كبير من المصادر والمراجع وتأمل النصوص القرآنية التي تبرز هذه الخصائص.

حيث قمت بالتحليل الموضوعي لكشف النقاب عن بينات أسلوبية في القرآن بما يلائم كلَّ بينة، مقارنًا -أحيانًا- تلك النصوص القرآنية بنصوص أخرى من القرآن الكريم لإبراز ميزة القرآن في التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة، وكيف أن هذه البينة أو تلك قد تجسدت في النص القرآني دون غيره من النصوص الأدبية التي يتمتع قائلوها بقدر كبير من الفصاحة والبيان؛ بيد أن تلك القدرات تظل محدودة بالقياس إلى القدرات المطلقة في النص القرآني.

ولن آلو جهدًا في إبراز تلك القدرات واستنتاج الدلالات الإيحائية بواسطة المنهج الأسلوبي وأدواته التعبيرية.

وربما يكون الجديد في هذه القراءة هو التركيز على هاتين الركيزتين الأصيلتين في النص القرآني وذلك من خلال البينات الأسلوبية التي سنتناولها في هذا البحث:

وبعد جمع عدد كبير من البينات وتفحصها اقتصرت على **خمس** منها -لأهميتها- توضيحًا وأمثلةً وتحليلًا واستنتاجًا.

وسوف أتناول في هذا البحث **البينات الآتية**:

١. التنوع في الأساليب والبراعة في أفانين القول.

٢. النظام الصوتي وجمال التنسيق.

٣. مخاطبة العقل والعاطفة معًا.

٤. الأسلوب وإحكام التأليف.

٥. الجمع بين البيان والإجمال.

هذا وأسأل الله التوفيق والسداد وأستغفر الله من كل زلل، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

التمهيـــد

يعد النص القرآني نصًّا متميزًا عن سائر النصوص التي عرفتها اللغة العربية منذ نشأتها النشأة الأخيرة قبل الإسلام بمائتي عام، وسر تميزه أن الله أنزله ليكون معجزةً ومنهجًا شاملًا- زمانًا ومكانًا وأممًا- «معجزًا في أسلوبه، معجزًا في علومه، معجزًا من ناحية أثره الذي أحدثه في العالم وغير به وجه التاريخ »[(١)]؛ ولذلك كان له أثر في إثراء اللغة العربية فكرًا ودلالة وأسلوبًا وإيقاعًا، وإذا كانت اللغة العربية قد تميزت بخصائص تاريخية وبينات ثقافية ودينية وصوتية وبنائية واشتقاقية فإن الفضل في ذلك يرجع إلى القرآن الذي جعل لها هذه الأهمية، وشغل العلماء بخصائصها أصواتًا وألفاظًا وتراكيب ونصوصًا؛ حيث تمثلت هذه البينات في أرقى صورها في القرآن الكريم، فالقرآن يعد تعبيرًا بيانيًّا مقصودًا، أي أن كل كلمة وكل حرف فيه وضع وضعًا مقصودًا ذكراً أو حذفاً، تعريفًا أو تنكيرًا، تقديمًا أو تأخيرًا.

وقبل الشروع في بحث عدد من البينات الأسلوبية في القرآن دعونا نتوقف هنيهة عند مصطلحي (الأسلوب والنص) من منظور معجمي نقدي؛ فالأسلوب في معناه اللغوي الدقيق يعني «التنسيق والتنظيم والوجه والمذهب والطريق، كما يسمي الفن من القول أسلوبا»[(٢)].

وفي تاج العروس: «الأسلوب بالضم الفن ـ وأساليب من القول أفانين منه»[(٣)] ومن هذه المعاني اللغوية مجتمعة استخلص النقاد أن الأسلوب طريقة كلامية يسلكها المتكلم أو الكاتب في التعبير عن مواقفه والإبانة عن شخصيته المتميزة باختيار ألفاظه وصياغة جمله وعباراته والتأليف بينها، لإنتاج الدلالات التي يريد

(١) النبأ العظيم، محمد عبدالله دراز، ص١٠٨ ،ط١٠، ٢٠٠٨م دار القلم للنشر والتوزيع بيروت.

(٢) لسان العرب لابن منظور، مادة سلب م دار المعارف القاهرة، ١٩٧٩م.

(٣) تاج العروس للزبيدي، ١٩٦٧م.

إيضاحها والتأثير بها على المخاطبين.

وفي الدراسات الغربية: يُعرف الأسلوب: بأنه طريقة في الكتابة لكاتب من الكتاب أو لجنس من الأجناس أو لعصر من العصور، أي أن الأسلوب معانٍ مرئية في الذهن تتبعها ألفاظ منسقة في سياقات تعبيرية نتاجها تلك المعاني المرتبة مسبقًا في ذهن المتكلم(١).

أما النص - كما في اللسان- فمأخوذ من الرفعة والظهور والشهرة، ومنه المنصة لبروزها أمام الجميع، والنص في أصل اشتقاقه ووضعه اللغوي يعني النسيج والتلاحم والترابط بين أجزائه ومكوناته، ويقولون أصل النص في اللغة أقصى الشيء، وضرب من السير، ونصصت الحديث إلى فلان رفعته إليه.

ومن مجموع هذه المعاني اللغوية يبرز المعنى النقدي للنص بأنه «مدونة كلامية ترتكز على نسيج من العلاقات اللغوية المركبة التي تتجاوز حدود الجملة بالمعنى النحوي» ليغدو رسالة مبثوثة بقصد؛ وبذلك تكون السورة القصيرة جدًّا نصًّا لأنها رسالة مبثوثة بقصد(٢)، وبهذا المعنى يمكن أن تكون الجملة الواحدة نصًّا كما هو الحال في الأمثال. «كل فتاة بأبيها معجبة، قلب له ظهر المجن، الآن حمي الوطيس»(٣).

ومن الأمثال القرآنية التي تشكل نصوصًا بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣]. وقوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩]. وقوله: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢].

---

(١) الأسلوب لأحمد الشائب، ص٣٣ ، دار النهضة القاهرة.

(٢) ظواهر أسلوبية في الشعر الحديث في اليمن، أحمد الزمر ، ص ٢١.

(٣) مجمع الأمثال للميداني، ج ١ ، ص ٢٥٦ ، مطبعة السنة المحمدية القاهرة، ١٩٩٥م.

فقد عدُّوا هذه الجمل نصوصًا لأنها رسائل مبثوثة بقصد، وبذلك نفهم معنى الإيجاز في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٤].

وعبر هذا الجسر يتضح لنا أن النص القرآني له أسلوبه الخاص، وطريقته التي انفرد بها في اختيار ألفاظه، وتأليف كلماته وصياغتها وإقامة العلاقات بينها ونسج دلالاتها بأسلوب فاق أسلوب العرب في كلامهم، وتميز إلى درجة حيَّرت العرب أصحاب البيان فيما يصفون به القرآن، فمرة يقولون هو شعر ثم يتراجعون عن ذلك لأنهم يعرفون خصائص الشعر، ومرة يقولون سحر لأن للقرآن تأثيرًا خفيًّا لا يدركون سره، بيد أنهم تراجعوا عن ذلك حيث إنهم قد خبروا السحر وعرفوا تأثيره وإمكانية إبطال ذلك الأثر، ومن ثم قالوا ليس ذلك بسحر وما محمد بساحر، وظلوا في جوّ من الحوار الساخن حتى أسلم جُلُّ من بقي منهم.

وبعد حين أدركوا خصائص أسلوب القرآن ومزاياه وطابعه المعجز في لغته وبلاغته، وفي أفكاره ودلالاته، وفي خفاياه وأسراره الصياغية والغيبية والتاريخية والعلمية ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٦].

وقد أفاض علماء البيان في شرح أسلوب القرآن ومزاياه وبيناته، ولحق بهم علماء الإعجاز والتفسير والدلالة وغيرهم؛ لكن ذلك كان قطرة من بحر.

بيد أننا سنقف عند أهم البينات الأسلوبية التي توصل إليها علماء البيان، ليس

على وجه الاستقصاء والاستيعاب والإحاطة بمزايا القرآن الأسلوبية فذلك أمر دونه (خرْط القتاد)؛ ولكن على سبيل التمثيل والتقريب والإسهام في الكشف عن بعض البينات الأسلوبية للقرآن الكريم.

وبعد هذا التمهيد الموجز أرجو أن أكون قد أبنت للقارئ الكريم القصد من هذا البحث والهدف من هذه القراءة المتعلقة بالنص القرآني، الذي شكل منهجًا شاملًا لأفكار الأمم السابقة عليه واللاحقة له، وكوَّن فكرًا تربَّت على مائدته أجيال وأجيال، ولا يزال موردًا عذبًا لأجيال أخرى ستأتي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أهم البينات الأسلوبية في القرآن

وأزعم أن اختياري لهذه البينات ليس اعتباطًا ولا استنساخًا لأفكار سبقت، وكذلك ليس رؤيا من سراب، ولا نابعًا من أرض يباب.

فالموضوع متجذر في أعماق تاريخ الدراسات الذوقية والأسلوبية للقرآن الكريم؛ بيد أن تناولي للموضوع سوف يكون -أو هكذا أزعم- قراءةً جديدةً للأسلوبية من خلال النص القرآني وأدواته التعبيرية، متسلحًا بسلاح التأمل والتفكر عند كل بينة على حده - استشهادًا وتوضيحًا، تحليلًا ودلالات.

البينة الأولى: التنوع في الأساليب والبراعة في أفانين القول

وهي ثروة أسلوبية واسعة يتميز بها القرآن، ومن نافلة القول أن نؤكد: «أن للقرآن مقدرة فائقة خارقة في إبراز المعنى الواحد بتعبيرات وطرق مختلفة، وقف عندها علماء البلاغة وقفات طويلة متأنية»[(١)].

وسأوجز الحديث عن هذه الظاهرة من خلال الأساليب الآتية:

أولاً: صيغ الأمر:

فطلب الفعل لم يقتصر على صيغة واحدة هي فعل الأمر؛ بل جاء إضافة إلى الأمر بصيغ أخرى، مثل المضارع المقرون بلام الأمر: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾، والمصدر النائب عن فعل الأمر: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ﴾ ، واسم فعل الأمر: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بمعنى الزموا، وليس هذا فحسب، ففي القرآن جمل إخبارية وليست من صيغ الأمر كالمضارع المشتق من مادة أمر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]، أي: أدوا؛ فهو مضارع لفظًا وأمْرٌ معنًى، فدلالة الفعل على

(١) انظر كتاب مناهل العرفان للزقاني، ج٢، ص ١٩٩، وانظر المقدمة العاشرة من كتاب التحرير والتنوير لابن عاشور، ج١ ، ص١٠٤.

الأمر معنوية وليست لفظية، ولهذا التنوع مكانته البلاغية عند العلماء، فالبلاغة تأدية المعنى الواحد بطرق مختلفة؛ ولذلك قال ابن عاشور : «إن يأمركم صريحة في الأمر والوجوب »(١).

ومرة بالإخبار عن خيرية مصدر الفعل، كقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٢٢٠]، أي: أصلحوهم فإصلاحهم خير، والإخبار عن المصدر بالخيرية أدعى إلى ممارسة الإصلاح من الأمر نفسه؛ ولذلك ترك صيغة الأمر الصريحة إلى المصدر ليكون أعم وأشمل .

ومرة بأسلوب الاستفهام، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة:٩١]، أي: انتهوا، وليس الاستفهام من صيغ الأمر وإنما الأمر إحدى الدلالات البلاغية للاستفهام، ولعل التعبير بالاستفهام بدلًا من الأمر مرده إلى أن الاستفهام ينبه المتلقين إلى خطئهم في شرب الخمر تمهيدا لأمرهم بتركه، فجاء الاستفهام في سياق الحث والترغيب ليكون أدل على الإسراع في تنفيذه .

ومرة بترتيب الوعد والثواب على الفعل، كقوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد:١١]، أي: أقرضوا الله لتنالوا ثوابه، والأمر بهذا الأسلوب فيه من الحث والاستنهاض والتشجيع والإغراء ما ليس في صيغ الأمر المباشرة.

ومرة بترتب الفعل على شرط قبله، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ [البقرة:١٩٦] . أي: فاذبحوا ما استيسر، فحذف الأمر -وهو الجواب- لدلالة الشرط عليه، «وقد تكون بلاغة الإيجاز في الحذف أقوى من الذكر» كما يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني(٢).

---

(١) التحرير والتنوير، ج٣، ص ٤٤٧.

(٢) دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر - مكتبة وهبة القاهرة.

إلى آخر ما هنالك من الأساليب التي تفيد معنى الأمر، وتتبعها في القرآن يشكل ظاهرة أسلوبية، وحسبنا هذه الأمثلة للدلالة على تأصل هذه الظاهرة، وتميز القرآن بها صياغةً وأسلوبًا ودلالةً، وقد شكلت سمة من سمات الإعجاز، فتنوع الأساليب جاء تبعًا لتنوع المخاطبين، واختلاف المواقف، وتعدد الموضوعات.

دلالة هذا التنوع: وهنا ملاحظتان:

الأولى: أن تنوع هذه الصيغ إضافة إلى براعة أسلوب القرآن في تنويع أساليب الكلام وأفانين القول؛ فإن فيه دلالة على إعجاز القرآن، وليس ذلك من الصيغ نفسها وإنما بسبب نظم هذه الأساليب وتنسيقها ونتاجها الدلالي، وكأنه يقول إنكم أيها العرب على الرغم من فصاحتكم وتمكنكم من لغتكم إلا أن أسلوب القرآن يتميز بتصريف الأساليب، مما يدل على أن هذا القرآن من عند الله وليس من عند محمد ﷺ، فلو كان من عنده لما أعجزكم أن تأتوا بمثله، ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه:١١٣]. قال البقاعي: «أي ذكرناه مكررين له محولا في أساليب مختلفة وأفانين متنوعة مؤتلفة »(١).

الثانية: ثم إننا لو نظرنا نظرة فاحصة في كل صيغة من صيغ الأمر لألفينا كل صيغة تناسب سياق الدلالة التي وردت فيها، ويتضح ذلك التناسب من خلال النظرات التي أشرنا إليها في قراءة النصوص السابقة، ومعنى ذلك أن إعجاز القرآن لا يكمن في هذه الأساليب نفسها، وإنما في نظمها وتناسقها والدلالات الناتجة عنها.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج٥ ، ص ٢٧١ ، دار الكتاب الإسلامي القاهرة.

وكما جاء تنويع الأساليب وتصريفها في الأمر جاء في النهي والاستفهام والنفي، وفي تنويع أساليب الإيجاز والإطناب والمساواة، وللقرآن أسلوبه الخاص في استعمال الأساليب وتنويع أدواتها وألفاظها وطريقة تركيب كل نوع، وذلك تبعًا للدلالة التي يريد إنتاجها من كل أسلوب، «فإن اختلاف المعنى يؤدي بالضرورة إلى اختلاف الأسلوب واختلاف أدوات التعبير»[(١)].

ثانيًا: صيغ النهي

وكما وقفنا على أنواع من أساليب الأمر ودلالاته وصيغ هذا التنوع وأسراره، سنقف أيضا وبإشارات موجزة على أنواع من أساليب النهي، ودلالة كل أسلوب وصيغته ومعرفة سر ذلك التنوع الأسلوبي.

وقد عبر القرآن عن النهي- إضافة إلى صيغة النهي الأصلية (لا تفعل) - بوسائل متعددة، منها على سبيل المثال:

- الأمر، في قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام:١٢٠]. فإن (ذروا) في مقام لا تفعلوا، بيد أن الأمر بالترك أقوى من طلب الكف عن الفعل، حيث إن ذروا يعني الإقلاع والمفارقة معا، قال البقاعي: «ذروا ظاهر الإثم، النهي عنه على وجه يعم غيره»[(٢)]. وقال ابن عاشور: «ومعنى ذر اترك، أي لا تخالط»[(٣)]. وقال الرازي: «النهي عن الإقدام على الإثم»[(٤)]؛ إذن فالمعنى المراد هو النهي، واستخدام الأمر يُعَدّ عدولًا.
- أو بمادة النهى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡ﴾ [الممتحنة: ٩].

---

(١) البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين الزركشي، ص٥٤٧.
(٢) نظم الدرر، ج٣، ص١٢٠.
(٣) التحرير والتنوير، ج٤، ص ٤٨.
(٤) تفسير الرازي، ج٦، ص٤٥٨.

فإن النهي هنا ليس بصيغة النهي المعروفة عند اللغويين وإنما بصيغة أخرى هي المضارع المشتق من مادة نهى، وقد استخدم معه أسلوب القصر الدال على التخصيص، أي: لا تتولوا قوما مخصوصين بهذه الصفة، وإنما استخدم هذا الأسلوب لأنه المناسب لأسلوب القصر، فالصيغة مضارع في اللفظ نهي في المعنى، وهو من باب وضع الخبر موضع الإنشاء .

• استعمال صيغة النهي نفسها (لا تفعل)، كقوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء:٣٤] . وهو نهي صريح بأسلوب واضح الدلالة والصناعة، ويستعمل أسلوب النهي الصريح في هذا المعنى لمعان متعددة، أبرزها طلب الكف عن الفعل كما في الآية السابقة، ومنها الدعاء كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾، ومنها التيئيس كقوله تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم ﴾ [التوبة:٦٦].

• نفي البر عن الفعل للدلالة على نهي الفاعل عن فعله، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة:١٨٩]، أي: لا تأتوا البيوت من ظهورها، وإنما عدل عن النهي إلى نفي البر لأن نفي البر سلب للخير، وهو أمر بالغ الأثر في النهي عن الفعل.

• نفي الحل عن الفعل للدلالة على منعه ومن ثم تحريمه ومنع الفاعل عن فعله، ويقوم مقام النهي معنًى لا لفظًا، كمثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ [النساء: ١٩]. أي: لا ترثوا النساء، فنفي الحل يعني التحريم، وهو أدل على النهي حيثما وجد، فاستعمال الجملة الخبرية (لا يحل) مقام الجملة الإنشائية (لا ترثوا) يُعَدّ

بمثابة التمهيد للأمر الذي جاء هو الآخر بصيغة المضارع؛ للدلالة على عمومية الحكم في الحال وفي المستقبل.

وهذا التنويع في أسلوب النهي في القرآن الكريم مع مراعاة السياق وأدوات التعبير والنظم والمادة التي اشتق منها النهي؛ كل ذلك يعد وسيلة من وسائل إنتاج الدلالة بطرق مختلفة، وسر من أسرار الإعجاز ، ودليل على مكانة القرآن البلاغية، وقدرته الإبداعية ، صياغةً وإيقاعًا ودلالةً .

ثم إن كل أسلوب من أساليب النهي يدل على تناسق تام بين الأسلوب والغرض البلاغي في سياق كل نص قرآني، فينهاكم في سياق أسلوب القصر ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ﴾ أقوى تأثيرًا وأعمق دلالةً على النهي من صيغة (لا تبروا الذين قاتلوكم) ، وسر قوة هذه الصيغة أنها جاءت في سياق القصر؛ والقصر في قوة جملتين، ثم إنها اشتقت من مادة النهي، وهو أدل على المنع كما سبقت الإشارة.

وسر بلاغة هذا التنوع والتصرف أنك تقرأ أساليب مختلفة، وصيغًا متنوعة، وفي سياقات شتى، وتصل في نهاية المطاف إلى نتيجة دلالية واحدة، فجميع هذه الأساليب في مضمونها تدل على أن المراد منها النهي. والله أعلم.

البينة الثانية: النظام الصوتي وجمال التنسيق

ونعني بهما اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ومدّاته وغُنّاته اتساقًا عجيبًا يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس، ويستقي النظام الصوتي دلالته من المفهوم اللغوي والاصطلاحي للجَرْس، حيث يتصل بالناحية الصوتية من الأسلوب، فالجَرْس هو الصوت والنغم، وهو قيمة جوهرية في الألفاظ وبنائها اللغوي، والجَرْس هو أداة التأثير الحسي للألفاظ المتناسقة في التعبير القرآني(١).

وقد نبَّه القرآن على أهمية الجرس وأثره في السامعين فقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤]. والترتيل قراءة متأنية مبينة مشبعة الحروف والحركات، وهذا النوع من القراءة هو الذي استرعى أسماع العرب واستهوى نفوسهم وأذواقهم، ووجدوا فيه حلاوةً وجمالًا، وقد جعل العلماء ذلك وجهًا من وجوه الإعجاز(٢)، ويتمثل الجرس أو الإيقاع في انسياب الآيات انسيابًا متناسقًا على نظام اختص به القرآن، لا يخضع لمقاييس علم العروض الذي صاغ العرب كلامهم على منواله.

لنقرأ هذه الآيات من سورة طه، قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه:٦٧-٧٠]. وهو أسلوب يستهوي النفوس إلى التمعن والنظر في الآيات، حيث تقديم المفعول وتأخير الفاعل، وأهمية هذا التقديم والتأخير دلاليًّا وإيقاعيًّا، وكذلك

(١) جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب ، د. ماهر مهدي هلال، ١٩٨٠، دار الرشيد – بغداد.

(٢) انظر المعجزة الكبرى للشعراوي ٣٢٦، والفوائد المشوق لابن القيم ٢٤٦ ، والأسلوب في الإعجاز البلاغي، لمحمد كريم الكواز ٣٢٢.

تأخير موسى على هارون في الآية الأخيرة مع أن موسى هو الأصل، وكذلك وضع (حيث) قبل (أتى) في الآية الثانية وكأنها قالب فصل خصيصا ليوضع فيه الفعل(أتى)، إضافة إلى حروف السين والخاء والفاء وما تولد عن تكرارها من إيقاع ساحر وجرس آسر.

وهذه البينة تعد بمثابة الأداة التي بواسطتها تصور المعاني وتنتقل من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب، على أن الدلالة الجمالية المتولدة من التناسق اللفظي أعظم أثرًا في الإعجاز، فاللغة تتفاضل من حيث البيان أكثر من تفاضلها بالأنغام والأجراس والجمال الصوتي، مع التأكيد على أن الجمال الإيقاعي يعد وسيلة لإبراز الجمال البياني، فالإيقاع وسيلة من وسائل إبراز المعنى.

ولا غرو أن يكون للنغم القرآني هذه الجاذبية الساحرة؛ حيث جمع أسلوب القرآن البياني – بطريقة متميزة – بين مزايا الشعر ومزايا النثر جميعًا، ولا غرابة أيضًا أن يكون هذا النظام الصوتي في القرآن خاصية من خصائصه الأسلوبية، تبرز هذه الخاصية للعيان حين نرى تعلق غير العرب في هذا العصر بالقرآن وحفظهم له وحسن تلاوتهم لآياته دون أن يفقهوا بيانه، وليس ذلك فحسب؛ فجمال التنسيق ونظام الصوت يتشكلان في الآيات من خلال عدد من الظواهر اللغوية والصوتية:

١- إذ يتألف الإيقاع من تآلف الحروف مخرجًا وصفةً وحركةً، أوجس– موسى، ألق تلقف، ما صنعوا –إنما صنعوا، هارون وموسى، فهذا الترابط حقق وحدة صوتية منسجمة ومتناغمة.

٢- ويتألف الإيقاع كذلك في الآيات من الكلمة وزنًا ونوعًا واشتقاقًا، خيفة.

٣- لا تخف، صنعوا – صنعوا، وألق فألق، فهذا الترابط اللفظي خلق في النص ترابطًا دلاليًّا ملموسًا وانسجامًا إيقاعيًّا واضحًا.

٤- والفواصل القرآنية، وهي العنصر الأهم في تشكيل الإيقاع الصوتي وتحقيق التناسب المعنوي والفني «يتمثل هذا الإيقاع في انسياب الآيات انسيابًا متناسقًا على نظام اختص به القرآن لا يخضع لمقاييس علم العروض»، فالفاصلة القرآنية منها الطويلة ومنه المتوسطة ومنها القصيرة، مثل: موسى، الأعلى، أتى، وعلى الرغم من هذا التفاوت إلا إنها حققت انسجامًا رائعًا بين الآيات – لفظيًّا، ودلاليًّا، وإيقاعيًّا.

وكثيرًا ما نلمس في أنفسنا وفي من حولنا أن سامع الشعر والأنغام الموسيقية يملّها بعد حين من سماعها والابتهاج بأوتارها؛ لكن ذلك لا يتطرق إلى ذهن قارئ القرآن والمصغي إليه؛ لأن تنويع أنغامه وتجديد ألحانه يورث ابتهاجًا تهتز له أوتار القلوب، وتسعد له شفافية النفوس، فالقلوب والنفوس والقرآن ثلاثتها من مصدر واحد، هو أعلم بما يبهجها ويطربها، ولذلك جاء القرآن متناسقًا في أنغامه وصياغته اللفظية مع مشاعر الإنسان وشغاف قلبه، فقارئ القرآن «إذا طرقت سمعه جواهر حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة؛ فاجأته لذة نظم تلك الحروف وترتيب أوضاعها، هذا ينقر، وذاك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلق منه النَّفس، وغيره يحتبس عنده النَّفس» الخ[1].

وذلك يبرز الجمال اللغوي، وهو يشكل القشرة السطحية فقط للجمال اللفظي في القرآن.

وبما أن القرآن قد حوى نفائس العلوم والأفكار وتاريخ الأديان وأسرار الكون؛ كان لا بد أن يصاغ في ألفاظ وعبارات وقوالب تحببها إلى النفوس، وتغريها بعذوبته وطلاوة أنغامه.

(١) النبأ العظيم، د. عبد الله دراز، ص ١٣٥.

ولن تجد البشرية لغة أصفى من هذا اللسان العربي المبين الذي صيغ به القرآن، ولا قالبًا أنقى من هذا القالب العذب الجميل، ولا ألفاظًا أسلس وأدق وأوسع دلالة من هذه الألفاظ المنتقاة بعناية، ويكفي أنها من لدن حكيم عليم، حكمة مطلقة وعلم مطلق(١).

ونقف هنا وقفةً أخرى مع الآيات القصار من سورة المدثر، التي جاءت ردًّا منطقيًّا وفكريًّا على الوليد بن المغيرة، حينما خالف فطرته وقال كلامًا يُرضي به أبا جهل وقومه:

قال تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾ [المدثر:١١-١٧].

لو لم يكن هذا قرآنًا ولو لم يكن كلام رب العزة والجلال؛ ماذا سيكون ؟ من يملك أن يقول مثل هذا الكلام الذي يتغشاه جلال الربوبية، ويكتنفه الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ولا نملك إلا أن نسلم بأنه معجزة الله الخالدة.

ولسنا هنا بصدد مناقشة هذا المقطع، ولا أسلوب صياغته، ولا معلوماته الدقيقة التي انتزعت من أعماق النفس البشرية للوليد بن المغيرة، ولا طريقة الرد التي تحمل روح التحدي من قوي قادر، كل ذلك مفروغ منه ومعلوم للوليد ولقريش وسائر العرب؛ لكننا فقط نلفت نظر القارئ إلى الخاصية الأسلوبية التي نحن بصدد الحديث عنها، وهي خاصية النغم الصوتي والنظام التوقيعي والجمال

---

(١) يقول الرافعي -في سياق حديثه عن الجمال التنسيقي لألفاظ القرآن-: إن هذا الجمال يتجلى في جوانب ثلاثة:

١. صوت النفس: وهو دلالة الكلمة الموضعية.

٢. صوت العقل: وهي الدلالة العقلية للكلمات وتسمى الدلالة البيانية.

٣. صوت الحس: وهو تفاوت الكلمات في دقة التصوير والإبداع، (بتصرف من إعجاز القران ص٢٢١).

اللفظي المتدفق من هذه الآيات.

نقرأ في الآيات تشابه الأجراس، وتقارب الأنغام، وتناسب المقاطع، وتوافق المعاني للألفاظ، في صياغة دقيقة رقيقة عذبة، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، ولا تنافرًا ولا قلقًا، ولا تجد لفظًا مستكرهًا في مكانه، ولا فكرةً مقحمةً في غير مكانها، ولا حرفًا متنافرًا مع أقرانه(١).

والجمال الصوتي في الآيات ليس نابعًا من الوزن الصرفي (فعيل) فحسب؛ ولكن منها ومن حركة الإعراب الفتحة والألف على اختلاف موقع الإعراب، من الحال إلى التمييز إلى المفعول المطلق إلى خبر كان ،والوزن واحد.

فالنغمة القرآنية ليست مجرد صوت منسجم، بل هي صوت له صلة بالمعاني، وتشارك النغمة في صياغة المعنى حسًّا وعاطفةً وفكرًا، حيث يأتلف جرس الألفاظ القرآنية ونغم سياقها ليشكلا معا معانيَ متعاضدة ملتحمة الإيحاءات والآثار النفسية والوجدانية، ومهما بلغت المواهب الإنسانية فستظل عاجزة عن بلوغ مدى الإعجاز القرآني؛ لأن الفرق بين كلام الله وكلام البشر كالفرق بين الخالق والمخلوقات، وفي الآيات الآنفة الذكر ما يدل على ذلك (فكر، قدر، عبس، بسر، أدبر، استكبر) ، فالعلاقة بين الفكر والتقديرعلاقة لفظية ودلالية في آن، والعلاقة بين (عبس وبسر) علاقة وجدانية ولفظية في آن، فكلاهما تعبير دقيق عن تغير الوجه عند الغضب أو الشدة، وفي الوقت نفسه متحدتان لفظيًّا عن طريق الباء والسين.

ثم إن العلاقة بين (أدبر واستكبر) علاقة حميمة، والإدبار مظهر أو صورة من صور الاستكبار، وكذلك العلاقة حميمة بين (يؤثر، والبشر) فقول البشر يعد صورة

(١) انظر مقدمة التحرير والتنوير،لابن عاشور (بتصرف)جـ١ص١١٠، والبرهان في علوم القرآن للزركشي.

من صور السحر، إذ ليس السحر إلا كلامًا من كلام الإنس يؤدي إلى السيطرة على ذلك الإنسان المسحور،ومنه الكلام المعسول الجميل الذي يسحر القلوب فيجعلها تتصرف تبعًا لهوى المتكلم؛ ولذلك سمي البيان بالسحر الحلال، ومنه كذلك (سقر، ولا تبقي ولا تذر) ، فكلمة سقر اسم من أسماء النار، ونفي البقاء يعني الفناء، ووصفها بأنها لا تبقي ولا تذر تؤدي معنى الفناء والهلاك والتدمير، ولذلك جاءت الفواصل متناسقة لفظًا ومعنًى دون تكلف أو تمحل، فالكلمات صادرة من مشكاة واحدة ومن متكلم واحد، وهذا الاستنتاج «يوحي لنا بالخصوصية الإيقاعية لأسلوب القرآن الكريم»[(١)].

وإذا ما قارنّا هذه الجمل وغيرها من الجمل القرآنية بعبارات الشعراء وسجع الناثرين ومُحَسِّنات الكُتَّاب وتَرَسُّل الخطباء؛ لتبيَّن لنا البون الشاسع والهوة العميقة بين التناسق والجمال القرآني من جهة والنظام الصوتي الشعري من جهة أخرى، وقد أدركنا ذلك قبلا من خلال تحليل الجمل القرآنية نسقًا وصوتًا.

وليس الأمر كذلك بالنسبة للجمل الشعرية والنثرية، وقد رأينا ذلك في دراسات النقاد والدراسات البلاغية وكتب الإعجاز.

❀ ❀ ❀

(١) انظر تفسير الآيات في التحرير والتنوير، ج٥ ، ص٤٠٨ ، ونظم الدرر للبقاعي، ج٩ ، ص٢٤٢.

البينة الثالثة: مخاطبة العقل والعاطفة معًا

من البديهيات المقررة في العلوم الإنسانية أن من أهم مكونات الإنسان العقل والروح إضافة إلى الجسم الذي جعل قالبًا لهما، ولذلك اهتم القرآن بهذين المكونين اهتمامًا كبيرًا، وجعل العقل مناط التكليف، والروح وسيلة الإنسان للقرب من الله، وانطلاقًا من هذا الاهتمام رأينا أن القرآن يذكر العقل ومشتقاته حوالي خمسين مرة، ناهيك عن التفكير ومرادفاته، والروح حوالي اثنتين وعشرين مرة، أما النفس فقد ذكرت ما يقرب من مائتين وست وثمانين مرة.

وهذه الأرقام تزيد من أهمية هذين المكونين اللَّذَيْن يشكلان أهم عنصرَيْن من عناصر الكائن البشري. وذلك أنا نجد النص الواحد وفي خطاب واحد يهز المشاعر ويمتع العواطف، وفي اللحظة ذاتها يقنع العقل ويرتب له الدليل فلا يملك إلا التسليم. ولإبراز هذه الخاصية نقرأ عددًا من النصوص محاولين كشف النقاب في سياق الخطاب القرآني عن قدرة هذا الخطاب على استيعاب طرفي المعادلة العقل والروح في خطاب واحد، الألفاظ فيه وعاء للمعاني، والمعاني تشكل روح الألفاظ.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]. الخشوع: التذلل والتصاغر، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها، والانتفاخ: إذا أخصبت وتزخرفت بالنبات كأنها بمنزلة المختال في زيه، «وهي قبل ذلك كالذليل الكاسف البال في الأطمار الرثة»(١).

وهذا من تشبيه المحسوس بالمعقول باعتبار ما يتخيله الناس من مشابهة

(١) الكشاف لجار الله الزمخشري، ج ٦، ص ١٦٢.

«اختلاف حالي القحط والخصب بحالي التذلل والازدهاء»[(١)].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩]. ويتكرر في القرآن عرض مثل هذا المشهد واتخاذه نموذجًا للإحياء في الآخرة، ودليلًا كذلك على القدرة، «ومشهد الحياة في الأرض قريب من كل قلب، لأنه يلمس القلوب قبل أن يلمس العقول »[(٢)].

ويبدو أن الخطاب القرآني بدأ بتحريك مشاعر الإنسان من خلال ما يراه من ذل وانكسار للأرض قبل نزول المطر وكيف تغير حالها بعد نزوله، وبعد أن تصل المشاعر إلى قمة تأثرها خاطب العقل بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ ﴾ [فصلت:٣٩]، فإذ بمنكري البعث أمام دليل قاطع بأن البعث حق واقع لا ريب فيه، فالذي بدّل وجه الأرض من حال إلى حال قادر على أن يحيي العظام وهي رميم.

ومعنى ذلك أن القرآن يجمع في خطابه بين العقل والقلب، بين الحق والجمال، بين الفكر والعاطفة، أو كما يقول النقاد المعاصرون: بين الجمال والوظيفة.

ولنتأمل معًا مرةً أخرى هذا المقطع في سياق قصة يوسف في فصولها الطويلة المتنوعة المليئة بالمفاجآت:

قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣].

المراودة، مفاعلة مستعملة في التكرير. وتعني العمل من جانب والممانعة من الجانب الآخر، أي مقابلة العمل بمثله. والمراودة: مشتقة من راد يرود، إذا جاء وذهب. شبَّه حال من يحاول فعل شيء مكرراً ذلك بحال من يذهب ويجيء في

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور، ج٣ ، ص ٥٠.

(٢) في ظلال القرآن، ج ٦ ، ص ٢٩٨.

المعاودة إلى الشيء. «والظاهر أن هذا التركيب من مبتكرات القرآن، فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة، قاله ابن عطية، أي فالنفس أُريد بها عفافه وتمكينها منه لما تريد، فكأنها تراوده عن أن يسلِّم إليها إرادته وحكمُه في نفسه»[1].

وبقراءة تحليلية أسلوبية متأنية للنص القرآني، يتبين لنا أنها معادلة دقيقة لفظًا ودلالةً بين دواعي الغواية ودواعي العفاف.

مقابلة متوازية ومحسوبة بنظام أسلوبي إحصائي: المراودة في البيت ومن ربة البيت نفسها، مع إغلاق الأبواب بإحكام، معززة ذلك بالتهيؤ والاستعداد، بكل ما تحمله هاتان الكلمتان من إغراءات وإثارات عاطفية وجسدية، مضافًا إليه ما تحمله كلمات النص من الستر والخفاء (راود، التي هو، في)، فالمراودة تعني المراوغة والخداع، و(التي) اسم موصول يدل على الإبهام وإخفاء شخصية المراودة، و(هو) يدل على الإضمار وإخفاء شخصية المراود -بفتح الواو-، وحرف الجر (في) يحمل معنى الظرفية وعدم الانكشاف، (بيتها) إضافة البيت إليها يعني أنها في مأمن من المراقبة والتجسس، فلا سلطان لأحد عليها في هذا البيت من جانب البشر.

بيد أن هذه الإثارة العاطفية الجياشة قوبلت بعقل راسخ منصف حَسَبَ العواقب بدقة متناهية، فأضفى على نار العاطفة ماءً كثيفًا أخمد تلك النار وأحالها إلى رماد، ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف :٢٣]. أربعة مبادئ لا يخطئ من التزم بها وحسَبَها بدقة، الخوف من الله، واستشعار معيته، ومقابلة نعمه بالشكر، واستشعار عاقبة الظلم والانحراف، وقد توافرت جميعًا ليوسف عليه السلام، فنجا من الفخ الذي نصب له.

إنه أمام معادلة صعبة! بين دواعي الإثارة العاطفية القائلة: افعل، ودواعي

(١) التحرير والتنوير ج ١٢، ص ٢٥٠.

العفة المحسوبة بالعقل واستراتيجية التخطيط الآمرة (بلا تفعل)؛ فتغلَّب الإيمان والعقل على العاطفة والفتنة والغواية والانحراف.

وهذه المعجزة الكلامية التي وازنت بين القوتين لا نجد مثلها في كلام البشر؛ لأنه إما وليد الفكرة، وإما وليد العاطفة، لأن القوتين يندر أن تتكافآ، وإذا تكافأتا فلا أمل في توجيههما في اتجاه واحد و في آن واحد، وهذا ما جعل القرآن يتميز تميزًا واضحًا في خطابه، حيث استطاع أن يرسم توازنًا عقليًّا وعاطفيًّا في المقطع الواحد وفي الجملة الواحدة.

وهذا ما ليس في مقدور البشر مهما يعلُ شأنهم في مراقي سلم البلاغة والبيان؛ «لأن المرء حين يفكر إنما هو فيلسوف، وحين يحس أو يشعر إنما هو شاعر»[(١)].

والقوتان؛ التفكير والوجدان تتوفران في النفس الإنسانية، بيد أنهما لا يعملان في الآن نفسه، حيث إن حاجة كل منهما غير حاجة الأخرى، ومن هنا ندرك أن القوتين لا تتكافآن في النفس الإنسانية عند كثير من الناس، وإن تكافأتا عند البعض فإنهما لا يعملان دفعةً واحدةً بالنسبة نفسها؛ «فإذا تسلطت على المرء واحدة منهن اضمحلت الأخرى كما يقول علماء النفس»[(٢)]، ومن التجربة ندرك أن المرء إذا انهمك في التفكير تناقصت قوة وجدانه، أما إذا وقع تحت طائلة التأثير العاطفي فإن تفكيره يكاد يصاب بالشلل، ومن ثم فإن من يرتكبون الإثم لا يفكرون في حال تعرضهم للخطيئة، ولو فكروا كما فكر يوسف وغيره من الصالحين لما وقعوا في الإثم، والحديث الشريف: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» يؤيد هذه الفكرة، فالإيمان تعقل يعقبه التزام، والزنى تهور عاطفي يعقبه خطيئة.

---

(١) النبأ العظيم، لعبد الله دراز ، ص ١٤٩.

(٢) مشكلة الحرية ، زكريا إبراهيم ،ص١٠٣.

وتأسيسًا على ذلك نستنبط قاعدة مفادها؛ الإنسان إذن يفكر فيخاطب العقل كما نرى ذلك في كلام الحكماء والعلماء والفلاسفة والمفكرين، وتتغلب عليه العاطفة فيخاطب الوجدان كما نرى ذلك في كلام الشعراء والأدباء.

أما أن أسلوبًا واحدًا يجمع بين الإقناع العقلي ودغدغة العواطف؟ فهذا مالا يتوفر إلا للخطاب القرآني، وهو خاصية من خصائصه لأنه كلام الله الذي لا يشغله شأن عن شأن؛ ولا تراه في حال انشغاله بالعقل ينسى حق القلب من تشويق وترقيق وتهويل وتأنيب، ولا في حال انشغاله بالقلب والإثارة ينسى حق العقل من البرهنة والحكمة والإقناع.

ومن ثم فقد جاء الخطاب القرآني سائغًا للشاربين؛ يستنير منه العقل كما تغترف منه العاطفة!.

ولا يقال إن الخطاب في سورة يوسف صادر من شخصين مختلفين؛ لأن النص القرآني يشكل وحدة كلامية واحدة تربط الفكرتين بسياق واحد؛ وصدر من مشكاة واحدة وبأسلوب حواري متصل، وهذا ما جعله نصًّا واحدًا موجهًا إلى مخاطب واحد، متضمنًا الإثارة العاطفية والإقناع العقلي عند المخاطب نفسه.

ولذلك رأينا العقل حاضرًا في غمرة القصص والأخبار، وترى العاطفة منغمسةً في معمعة البرهنة والإقناع.

تأمل معي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ ﴾ [البقرة: ١٧٨-١٧٩].

موضوع النص فريضة مفصلة، ودماء وأحكام صارمة، إقامة للعدل وإرضاء

للعقل، عقل صاحب الدم فلن يرضى الموتور إلا بقتل الواتر، وهذا عدل وقصاص يمتع العقل والقلب.

بيد أن هذه المتعة العقلية اختلطت بها المشاعر الإنسانية؛ فخاطب في الحكّام إيمانهم كي يقيموا العدل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وخاطب في ولي الدم الرحمة والرأفة، فالعفو خلق كريم، وبين يديك إنسان ضعيف، وقد يكون وراءه أطفال ونساء، وبإمكانك أن تمسح دموعهم، إذ لا ذنب لهم فيما حدث، ثم يلتفت إلى القاتل وأوليائه فيستثير فيهم مشاعر الأخوة والإحسان في رد الجميل الذي منحهم إياه أولياء الدم.

فالآيتان مثال للتلاحم بين العقل والوجدان في الخطاب القرآني، ففي سطر واحد جمع النص بين البرهنة والاستدلال العقلي والتهويل والاستعظام العاطفي، بين المقدمات اليقينية المسلمة ودقة التصوير، حيث اجتمع في الآية البرهان الساطع والعاطفة الجياشة، وهذا مالا نحس به ونحن نقرأ نصًّا إبداعيًّا آخر في كتب الشعر والفلسفة والحكمة.

يقول ابن عاشور في التحرير والتنوير[(١)]: «ووجه انتظام هذا الاستدلال أنه لو تعددت الآلهة للزم أن يكون كل إله متصفًا بصفات الألوهية المعروفة آثارها». وهو دليل إقناعي يضع العقل أمام معادلة لا يملك إلا أن يسلم بوحدانية الألوهية، ثم عقب على ذلك بتنزيه الله عن المقالة التي أبطلها الدليل ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [فاطر:٢٢]. وإظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار يقتضي تنزيه المهابة.

ولكي نؤكد سلامة هذا المنهج وانفراد القرآن بهذه الخاصية نقرأ أنموذجين من الشعر لنرى كيف أن النص الشعري يقتصر في خطابه على العقل وحده، أو

(١) التحرير والتنوير، ج ٩ ، ص١٤٠.

العاطفة منفردة.

النموذج الأول: قول المتنبي في الحكمة:

الـرأي قبـل شـجاعة الشـجعان هـو أوّل وهـي المحـل الثـاني

فـإذا همـا اجتمعـا لـنفس حـرة بلغت من العلياء كل مكـان[1]

النموذج الثاني: قول الآخر:

إن التـي زعمـت فـؤادك ملّهـا خلقـت هـواك كـما خلقـت هـوى لها

فيك الـذي زعمـت بها وكلاكـما يبـدي لصـاحبه الصـبابة كلهـا[2]

تأمل المقطعين لترى الحكمة تتجسد في النموذج الأول، محاولة إقناع المتلقي بأن الرأي قبل الشجاعة، فالشجاعة بدون تعقل وتفكر تهور وانتحار، بيد أنهما لو اجتمعا في إنسان فقد جمع الفضل من أطرافه.

في حين أن عُرْوَة خاطب عاطفة المتلقي ليستدر دموعه شفقةً ورحمة على هذه المرأة التي تشاطره الصبابة والهوى، فلم يتمكن الأول من إشراك العاطفة، ولا الثاني من إشراك العقل.

وتُعد هذه البينة من أدق البينات الأسلوبية في القرآن، فلا تكاد عين الفاحص المتدبر لكلماته وتعبيراته وأسراره تخطئها.

(١) ديوان المتنبي، شرح ابن جني الكبير.

(٢) الكشاف، ج٢ ، ص٢٥٧.

البينة الرابعة: الأسلوب وإحكام التأليف

ومعنى هذا أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه وتآلف كلماته وتعانق جمله؛ بله سوره وآياته؛ مبلغًا لا يدانيه فيه كلام آخر، وآية ذلك أنك إذا تأملت في القرآن الكريم وجدته لحمة واحدة ووحدة متآلفة متماسكة، وروحًا عامًّا يبعث الحياة وينمي الحس- تتعاضد كلماته وتتناسق تعبيراته، وكأنه جسم واحد أو عِقد نظمت حباته نظمًا فريدًا؛ إذا أدخلت فيه كلمة ليست منه عُدَّت نابية، وإذا استبدلت كلمة بأخرى أفسدت المعنى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٢٨]. والعوج هنا عوج معنوي يعد من وصف المعنوي بالحسي، حيث جعل عدم التناقض والتعارض والالتباس بين آيات القرآن طريقًا مستقيمًا لاعوج فيه ولا تعرج.

وهكذا إذا وضعت الكلمة في سياق أو استخدمت اشتقاق في سياق تغير إنتاج الدلالة وفقاً لمراد الله من هذه الصياغة أو تلك، وقد وضع الإمام عبد القاهر الجرجاني أسس هذه القراءة للنص القرآني بحيث يكون المعنى هو الذي يوجه أسلوب التعبير، فالأسلوب نظام تؤدي اللغة فيه وظائف مخصوصة، أي أنه علم يدرس تناسق العناصر المؤلفة للكلام والعلاقات القائمة بين هذه العناصر لتحديد وظائفها وإنتاج الدلالة المرادة من الأسلوب؛ ولذلك وقف عبد القاهر متأنيًّا عند قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الأنعام:١٠٠]. وبحث عن المعنى المراد، ثم أعربها وفقاً لذلك المعنى، حيث أعرب شركاء مفعولًا أولاً، ولله مفعولًا ثانيًا أما (الجنَّ) فلم يعلقه (بجعل) هذه، ولم يعربه مفعولًا لها حيث فرَّق بين الإخبار والإنكار، فلو كانت الآية إخبارًا عن عبادتهم الجن لكان الأسلوب المناسب (وجعلوا الجن لله شركاء) فتعرب (الجنَ) مفعولًا أولًا، و(شركاء) مفعولًا ثانيًا؛ لكنه لما أخَّر الجن

لفت نظرنا إلى أن الآية جاءت في سياق الإنكار، والإنكار لا يمكن أن يكون منصبًّا على عبادة الجن خاصة؛ لأن إنكار عبادة الجن يأتي في سياق إنكار الشرك أيًّا كان المعبود؛ جنًّا أم ملائكةً أم غيرهم[1]، وحفاظًا على سلامة هذا المعنى قدّم (شركاء) ليكون مخصوصًا بالإنكار؛ ولذلك أعرب عبدالقاهر الجن مفعولًا لفعل محذوف دلّ عليه السياق، فكأن سائلًا يسأل من جعلوا لله شركاء؟ فكان الجواب (جعلوا الجن).

وهذا الإحكام والدقة في النظم والترتيب يعد أحد أبرز أسرار إعجاز القرآن الكريم؛ ولذلك لم يغامر مسيلمة أن يعرض للقرآن من هذه الناحية، أي ناحية الصناعة البيانية والصياغة؛ لأن هذه الزاوية كانت أوضح من أن يلتبس أمرها عليه، أو يزعم أنه بإمكانه تلبيسها على أحد من العرب أو خداعهم فيزعم أن أسلوبه كأسلوب القرآن، حيث لا يستطيع إقناع نفسه ولا إقناع غيره بذلك، وإنما لجأ إلى أسلوب الكهّان الذي كان شائعًا عند العرب، وكانوا يُعظِّمون الكهان في الجاهلية، وكان عامة أساليب الكهان من هذا السجع القلق الذي يزعمون أنه من كلام الجن، وكان لهذا الأسلوب تأثير على العرب قبل الإسلام؛ ومن ثم تجنب محاكاة القرآن صياغةً وبيانًا، ولجأ إلى هذا الأسلوب الكهنوتي لعل كلامه ينال شيئًا من القداسة، من مثل قوله: «إنا أعطيناك الجواهر، فصل لربك وجاهر، ولا تعتمد قول ساحر»[2]، وقوله: «والليل الأضخم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أسيد من محرم»[3]، وقوله: «إن الله خلق النساء أفواجاً، وجعل الرجال

(١) دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني، ص ٢٨٦.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني، نقلا عن كتاب مباحث في إعجاز القرآن لمصطفى مسلم، في دراسته عن الباقلاني، ص ٧٥، وصيد الخاطر، ص ٤٠٤، لعبد الرحمن بن الجوزي بيروت المكتبة العلمية.

(٣) المصدر السابق.

لهن أزواجاً، فينجبن لنا سخالاً إنتاجا»[١]. إلى آخر ما قال، مما لا نملك إلا أن نقول -ونحن مطمئنون-: إنه من سخف القول، حتى إنه لم يرتقِ إلى مستوى كلام عقلاء العرب وشعرائهم؛ بله أن يشابه القرآن أو يقترب من أسلوبه.

إن مثل هذا الهذيان يلفت أنظارنا إلى أن الدارسين للكلمة القرآنية اهتدوا إلى أنها تتميز بالفصاحة كونها تخضع للاختيار الدقيق، وبه تأخذ مكانها من النظم حتى لا تبدو نابيةً أو قلقةً في سياقها من الجملة، فالقرآن من خصائصه الدقة في اختيار اللفظة -اسمًا وفعلًا وحرفًا- هذا من جهة، ومن جهة ثانية «نظمها نظمًا بديعًا تتجلى به فصاحة الكلمة، ودقة التركيب، وصحة المعنى وكثافته»[٢].

يقول الرافعي: «حيث وجدت تركيب القرآن، في نسق من الكلام فإنما دل على نفسه وأومأت محاسنه إليه، ورأيته قد زيَّن الكلام وحرَّك النفس إلى موضعه»[٣]، وهذا ما لا نجد مثله ولا شبيهًا له في كلام البشر، فالمطابقة التامة بين المعنى والمبنى أصل فنون البلاغة، وقد جاء القرآن منسجمًا مع هذا الأصل.

وللبرهنة على صحة هذه القاعدة نقرأ معًا الآية الآتية قراءةً تحليليةً من وحي الكلمات التي اختيرت لها والجمل التي صيغت بها: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات:١٢].

فعلى مستوى التصوير والإيحاء نلاحظ الآتي:

• ففي الجمع بين الإنكار والحب[٤] دلالة على أن النفوس مجبولة على حب الغيبة، على الرغم من خطورتها اجتماعيًّا ودينيًّا، كما أن استحضار المتلقي بواسطة كاف الخطاب (أحدكم) يهدف إلى التأثير المباشر عليه.

---

(١) المصدر السابقن وصيد الخاطر لابن الجوزي، ص٤٠٤.

(٢) نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر الجرجاني، ص٤٥، تأليف محمود توفيق أسعد، موقع إتحاد الكتاب دمشق.

(٣) إعجاز القرآن للرافعي، ص٢٥٢.

(٤) الجمع بينهما من خلال دخول همزة الإنكار على الفعل (يحب).

• وفي استعارة أكل اللحم للغيبة دلالتان:

الأولى: انفتاح شهية المغتاب كانفتاح شهية آكل اللحم كلاهما يأكل برغبة.

الثانية: أن الغيبة تكون بذكر المعايب وفي ذلك تمزيق لأعراض المغتابين، فصوَّرت الآية هذا التمزيق المعنوي بتمزيق حسي هو تمزيق اللحم عند أكله؛ ولذلك كان الاختيار دقيقًا ومقصودًا.

• وفي إضافة اللحم إلى الأخ تنفير للنفس، ومبالغة في التحريم، فالمسلم بل الإنسان بطبعه وشرعه يتقزز ويحرم أكل لحم أخيه الإنسان؛ فكيف إذا كان هذا الإنسان أخًا أو قريبًا ؟

• قوله: ﴿مَيْتًا﴾ فيه:

أولًا: إشارة إلى أن الغائب كالميت من حيث إنه لا يحس بما يؤذيه، ولا يملك الدفاع عن نفسه لعدم شعوره.

وفيه ثانيًا: مبالغة في التنفير من هذا العمل وقذارته ونتنه، فإذا كان الإنسان يتقزز من أكل اللحم إذا كان هزيلًا فكيف به ميتًا! «وكيف إذا كان هذا الميت أخاً»!![1].

وعلى مستوى النظم وإحكام التأليف نقرأ في الآية ما يأتي:

• بدأت الآية بجملة إنشائية إنكارية ﴿أَيُحِبُّ﴾؟! وانتهت بجملة خبرية جعلت المحبوب مكروهًا كراهةً فطريةً ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، وذلك بفضل الصياغة التصويرية المحكمة لعناصر هذا العمل الذي جبل الإنسان على حبه رغم إنكاره له.

• التنسيق العجيب والتأليف المحكم لألفاظ لا تبدو منسجمة لأول وهلة، هل يأكل الإنسان لحم الإنسان أصلًا ؟! وهل يأكل الإنسان لحم أخيه؟! وهل

(١) كتاب الطراز، ليحي بن حمزة العلوي، ص١٨٨.

يأكل الإنسان لحم الميت؟! وعلى الرغم من هذا الإنكار الفطري فإن القرآن يجعل من هذه الكلمات لحمةً واحدةً إيقاعًا وتركيبًا ودلالةً.

ولمزيد من توثيق هذه البينة وتثبيتها في نفسك والتأكيد على انفراد القرآن الكريم وتميزه بدقة التعبير وإحكام التأليف ومتانة النظم بين كلماته وجمله ودلالاته حيث يؤدي المعنى الثري في اللفظ النقي؛ لهذا كله نقف وقفة أخرى مع نص آخر من النصوص القرآنية؛ ولسنا بحاجة إلى أن ننتقي الآيات التي وقع عليها اختيار البلاغيين والعلماء والمفسرين وتوارثوا الإعجاب بها، من مثل: قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ [هود: ٤٤]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٩]. وقد سبقت الإشارة إليها قبلا. وسأكتفي بالوقوف عند آية من عموم آيات القرآن التي ليست موضع تركيز علماء البلاغة والإعجاز وهي الآية [٩١] من سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة:٩١]. والآية جزء من فصل من فصول بني إسرائيل في حجاج القرآن لهم، وتلخص لنا هذه الكلمات التي لا تتجاوز سطرَيْن ثلاث قضايا أساسية:

١- «نصح اليهود بأن يؤمنوا بالقرآن، وتعمّد القرآن أن يكون الناصح مجهولًا (إذا قيل لهم).

٢- إجابتهم بإجابة مُغَلَّفة، متضمنة مقصدين: إيمانهم بما أُنزل عليهم، وكفرهم بما عداه.

٣- تفنيد هذه الإجابة بأدلة عقلية منطقية تلزمهم بعكس ما زعموا»[(١)].

(١) النبأ العظيم، د. عبدالله دراز ،ص١٥٣، ط العاشرة، ٢٠٠٨م ، دار القلم للنشر والتوزيع.

وتفصيل هذه القضايا التي عبّر عنها القرآن بهذه الكلمات المحكمة يأتي بشكل إشاري تارةً، واحتراسي تارةً أخرى، وأحيانًا بشكل آداب وأخلاق تُلزمهم بحكم إيمانهم بالله وكتبه ورسله؛ فهم قد آمنوا بما أنزل الله وهي التوراة فيلزمهم دينًا الإيمان بالكتب السماوية الأخرى بما فيها القرآن، فالتوراة أنزلت على موسى، والقرآن أنزل على محمد وكلاهما نبي ورسول، ولم يُسَمِ القرآن باسمه بل بكنايته التي هي سر إيمانهم بالتوراة، وهي كونه أنزل من عند الله، فقَرَن الدعوة إلى الإيمان بالحجة والبرهان بلفظ واحد ﴿ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، ونلاحظ أن الآية دقيقة في تعبيرها حيث طوى اسم المنزل عليه وهو محمد ﷺ ؛ ولعل سر هذا الطي والعدول عن ذكر اسمه -عليه الصلاة والسلام- فيه حكمتان؛ حكمة بيانية وحكمة إرشادية:

أما **الأولى:** فلأن ذكر اسم محمد ليس مُلزماً لليهود لأنه يمثل شريعة غير شريعتهم على الأقل في دعواهم؛ لكن المُلزم لهم أنه -أي القرآن- من عند الله، وهذا هو القدر المشترك بين التوراة والقرآن.

أما **الثانية**: وهي الحكمة الإرشادية، «فإن ذكر اسم محمد -عليه الصلاة والسلام- من شأنه أن يثير أحقاد المدعوين فيؤدي إلى عكس ما أراده القرآن من دعوتهم إلى الإيمان»[1].

وربما يضاف إلى ذلك أن حذف المنزل عليه فيه إشارة إلى عالمية الإسلام. فالإيمان بما أنزل الله يشمل التوراة والإنجيل والقرآن والزبور وصحف إبراهيم وغيرها. ويشمل الرسل كافة فالتعبير بجملة ﴿ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ينتج كل تلك الدلالات عن طريق الإيحاء والاستنباط والقراءة الفكرية الواعية.

(١) التحرير والتنوير، ج الأول ، ص٣٨٤.

إذ إن قوله: ﴿ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يلزمهم أن يؤمنوا بالقرآن وغيره من الكتب السماوية، فإيمانهم بالتوراة إنما ألزموا أنفسهم به لأنه حق، وقد أثبت الله في القرآن أنه حق «فلزمهم الإيمان بالحقَّيْن جميعًا أو الكفر الصراح»(١).

- أما قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ﴾ ففيه إشارة إلى أمرين:

الأول: أن اليهود معنيون فقط بما أنزل عليهم.

الثاني: أن القرآن لم ينزل عليهم ومن ثم فليسوا ملزمين بالإيمان به؛ لأن لهم منهجهم وأن للمسلمين منهجًا آخر، فهم كافرون بهذا القرآن، ومما زاد الآية إيجازًا هو حذف الفاعل المدلول عليه بالفعل المبني للمجهول.

- وأما قوله في الآية: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ فهو نص على كفر اليهود بكل الكتب السماوية، وفوق ذلك ففيها إيحاء بأمور هامة تدين بني إسرائيل:

الأول: انحسار إيمان اليهود بالتوراة، مع أن اليهود يدَّعون أنهم أولى الناس بإبراهيم، ومن باب أولى موسى وعيسى عليهما السلام.

الثاني: الدقة في أمانة النقل العقلي كانت رائعة، فعبارة (ما وراءه) تعني أن الإيمان بالتوراة وحدها ليس كافيًا في تحقيق الإيمان المطلق كما زعم اليهود، حيث قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، فكان الرد صارمًا من وجهين: **الأول**: أن ما أنزله الله بعد ذلك هو الحق، فكيف يدّعون الإيمان ويكفرون بما شهد الله أنه حق، **الثاني**: أنهم يكفرون بالإنجيل والقرآن وهما المصدقان لما معهم وهي التوراة، فكيف يؤمنون بالمصدَّق -بفتح الدال- ولا يؤمنون بالمصدِّق -بكسر الدال-، هذا لا يستقيم عقلًا ولا شرعًا.

الثالث: إن قَصْر الإيمان على التوراة هو كفر بغيره، وعبارة ﴿وَرَآءَهُۥ﴾ هنا

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ،ص ١٩٤ ،ط الأولى، ٢٠٠٥م ، دار ابن حزم بيروت.

استخدام مجازي، حيث جعل عدم الإيمان بالقرآن بمثابة التجاوز أو كناية عن الغائب، فالقرآن بالنسبة لهم خارج دائرة الإيمان.

الرابع: أن القرآن مصدق للتوراة فكيف يكون الكفر به إيمانًا بها، وحكاية إيمانهم بالتوراة بلفظ المضارع ﴿نُؤۡمِنُ﴾ يأتي للإيحاء بدوام الإيمان وتجدده واستمراره.

وجاء التصريح بكفرهم بلفظ المضارع أيضا ﴿وَيَكۡفُرُونَ﴾ محاكاة لقولهم ﴿نُؤۡمِنُ﴾ مشاكلة لفظية ومعنوية.

وارتبطت هذه الجملة بجملة حالية ﴿ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ للدلالة على أن الإيمان بالقرآن هو الحق كله، ويأتي الإيمان بالتوراة تبعًا له وليس سابقًا عليه؛ فإن (أل) الداخلة على الحق للاستغراق، وجملة ﴿ لِّمَا مَعَهُمۡ ﴾ إنما جاءت سدًّا للذرائع التي يتذرعون بها، وهي أن القرآن قد يكون مصدقًا للتوراة القديمة فليس بينه وبين التوراة المعاصرة نسب كي يؤمنوا به، فصرح القرآن بأنه ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡ ﴾[1]، إذ كان مقتضى السياق أن يقول (مصدقا لما أنزل عليهم)، بيد أن إحكام الصنعة البيانية اقتضى أن ينحي عن كتابهم ذلك الوصف ويعدل عنه إلى عبارة ﴿لِّمَا مَعَهُمۡ ﴾ لتكون سدًّا لكل باب من أبواب الهرب، بل كانت تطويقًا لأعناقهم وإلزامًا عقليًّا ودينيًّا لهم، حيث لا تصلح مكانها أية عبارة أخرى من قبيل (مصدقا لما عندهم، أو لما في زمنهم، أو غير ذلك) وهذا من عجيب شأن القرآن (لا تبديل لكلماته) حيث أبطل عذرهم ببرهان قرآني؛ إذ كيف يؤمنون بالمصدَّق وهو التوراة، ولا يؤمنون بالمصدِّق

(١) انظر في مناقشة هذه القضية:

١- تفسير في ظلال القران، سيد قطب، ج١، ص ٦٣.

٢- تفسير روح المعاني للألوسي، ج١، ص٤١١.

٣- كتاب النبأ العظيم، د. عبد الله دراز ، ص ١٥٦.

٤- تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج١، ص ٣٨٤.

وهو القرآن؟!.

إذن فعبارة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ مغلاق لما قبلها، مفتاح لما بعدها، فقد أغلقت عليهم قَصْر الإيمان على التوراة ، وفتحت لهم باب الإيمان على مصراعيه ليدخلوا من أوسع أبوابه ، أهمها الإيمان بالإنجيل والإيمان بالقرآن، ومن ثم الإيمان بالأنبياء كلهم.

وهذه الدقة وحسن اختيار الألفاظ الدالة على معان مقصودة بحيث لو وضعنا ألفاظا أخرى لأضعفت التعبير والدلالة معا، لا نجد لها مثالا في كلام العرب شعره ونثره.وكم من الشعراء يحسبون أنهم يحسنون صناعة الكلام بدقة متناهية، فإذا بالنقاد يأخذون عليهم مآخذ أصابتهم بمقتل وكانوا يظنون أنهم قد أتوا بما لم تأتِ به الأوائل. وأمثلة ذلك كثيرة في كتب النقد وغيرها من الكتب المهتمة بقراءة الشعر وتحليله[1].

(١) للتوسع في هذا الباب انظر: العمدة في صناعة الشعر ونقده، لابن رشيق القيرواني، والموازنة للآمدي، والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني،وتاريخ النقد عند العرب لإحسان عباس، ودراسات في النص الشعري لعبده بدوي.

البينة الخامسة: الجمع بين البيان والإجمال

حيث يأتي البيان والإجمال في صورتين متقابلتين ولغايتين مختلفتين لا يجتمعان في كلام بشري، وهذه التوأمة أو المزاوجة بين أسلوبين متقابلين بينة أسلوبية قرآنية، ربما تتقاطع مع الإيجاز في بعض ملامحه الأسلوبية لكن الإيجاز قد يستدعي تقديرًا أو تأويلًا أو تفسيرًا وهذا ما لا تحتاج إليه في هذا الأسلوب، إذ هو أسلوب قرآني صرف لم نعهد له مثيلًا عند العرب، وإذا كانت الأمثال تصنّف في باب الإيجاز؛ بيد أنها لا ترقى إلى مستوى أن تجمع بين البيان والإجمال؛ لكنها إيجاز وإن قصرت درجته عن إيجاز القرآن، وإنما أشار العلماء إلى تميز القرآن بها؛ لأن الأسلوب البشري، إما أن يكون إجمالًا مبتسرًا ناقصًا غير واضح المعنى، ومن ثم يحتاج إلى شرح وتوضيح ومذكرات تفسيرية، وقوانين تُبَسِطُ مجمله وتوضح مراد المتكلم منه.

وإما أن يسلك الكاتب أسلوبًا واضحًا مفصلًا فيتضخم النص وتتسع دائرته وتزيد ألفاظه وجمله، أما أن يجمع بين الإجمال والتفصيل في وقت واحد فهذا ليس في متناول الإنسان؛ لأن كلامه إما أن يكون موجزًا وفي الوقت نفسه ملبسًا غامضًا، أو يكون موضحًا مبسوطًا إلى حد الإسفاف، وهذا ما ننزه عنه القرآن؛ حيث نجد نصوصًا مزجت بين الحالين أو بين الصورتين المتقابلتين؛ البيان والإجمال، في آن دون الحاجة إلى ما ذكرنا من تأويل أو تقدير أو تفسير.

ودراسات العلماء -ولاسيما المعاصرون- تميز بين الأسلوبين، ومنهم من جعله نوعا من أنواع الإعجاز البلاغي[1]، «وسماه مظهر جلال الربوبية»، وهذا النوع

(١) محمد سعيد رمضان البوطي، في كتاب من روائع القرآن، ص ١٥٦.

يتحدث فيه الله عن ذاته آمرًا أو ناهيًا أو مخبرًا؛ ولذلك يتسم بصفات الألوهية وجلال الربوبية.

ولتوضيح هذه البينة الأسلوبية دعونا نقف في ظلال الآيات الآتية:

﴿ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [البقرة ٢١٢].

﴿ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [الإنسان:٣٠].

﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦۖ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء:٨٤].

وقد لا يدرك المرء هذه البينة الأسلوبية من النظرة الأولى ؛ بيد أن التفكر في هذه الآيات يتيح لنا إدراك أن الآيات السابقة تشكل قواعد، عامة وقوانين كونية، وتوضح المراد منها توضيحًا تامًّا[1]، وتبين غاياتها بيانًا شافيًا في الوقت الذي لا تتجاوز كلمات كل منها من ست كلمات إلى إحدى عشرة كلمة بين اسم وفعل وحرف.

فالآية الأولى: أرست قاعدةً عامةً وقانونًا ثابتًا، وهو أن الله جل جلاله وحده الذي يملك أن يرزق الإنسان بمشيئته إن شاء رزقًا غير محدود، والله وحده الذي يرزق من يشاء ومتى شاء وكيف شاء، بحساب مقدر أو بغير حساب مقدر محدود، لأن علمه غير محدود، فرزقه أو عدم رزقه وتحديده أو إطلاقه إنما يأتي وفقًا لعلمه، فلم نر كلامًا أبين من هذا الكلام، مع أن كلماته لا تتجاوز ست كلمات.

الآية الثانية: حسمت الكلمات الست صراعًا دام طويلًا، وتعددت أطرافه ووسائله، وتهيأت كل الأطراف للمعركة الفاصلة، وأعد كل طرف عدته، وشحذ أسلحته، وهيأ أتباعه نفسيًّا وجسديًّا وعقليًّا لهذه المواجهة، ولتلك النتيجة الحاسمة

(١) بتصرف من كتاب (من روائع القرآن) لمحمد سعيد البوطي، ص١٥٢.

التي حصلت في ظرف وجيز، وحسمتها كلمات ست لم تتجاوز نصف سطر، مع أن الحوار والتهيئة والاستعداد أخذ صفحات. ما أحسنه من بيان وأوضحه! وما أجمله من تعبير وأوجزه! قال تعالى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

وهو بيان وإجمال يختص به النص القرآني، فانظر إلى كلمتي (وقع) و(بطل) وتفكر في النتيجة الحاسمة التي توحي بها هاتان الكلمتان، وهي أنه مهما طال الصراع بين الحق والباطل فلا يصح إلا الصحيح، والصحيح هنا -وبعد معركة طويلة- هو ثبوت الحق ووقوعه، وبطلان الباطل واندحاره، «وهو ما عبرت عنه الآية بإجمال لا يستقيم إلا بهذه الكلمات، وببيان ليس وراءه بيان»[1].

وفي الآية الثالثة: حسمت الكلمات الثمان -وتمثل الحروف نصف تلك الكلمات- قضية حار فيها الفلاسفة، وتصارعت حولها الفرق والجماعات قرونًا، وهي أن الإنسان يملك الإرادة ولكن هل بمقدوره أن يحقق بإرادته ما يريد، وهل بإمكانه أن يحصل على ما يشاء أنى يشاء، وطالما أنه يفكر هل تفكيره يهديه إلى الصواب في كل الأحوال، أسئلة كثيرة تطرحها بعض الفرق والأديان والمذاهب حول الإنسان وإمكانياته العقلية والفكرية والروحية، وأن هذه الإمكانيات يمكن أن تحقق له ما يريد وفي الوقت الذي يريد؟!.

بيد أننا إذا عدنا إلى الآية لأدركنا بما لا يدع مجالًا للشك أن كل قدرات الإنسان وإمكانياته ومواهبه وسلطته على الكون التي منحه الله إياها لا يمكن بحال من الأحوال أن تتجاوز مشيئة الله وإرادته، والآية حسمت الأمر عن طريق أسلوب بلاغي معروف، هو أسلوب القصر، أو أسلوب النفي والاستثناء وهو إحدى طرق القصر.

(١) مناهل العرفان، ج٢، ص ٢٠٥، والنبأ العظيم، ص١٥١.

ولم يستخدم القرآن هذا الأسلوب إلا لحسم المسألة التي دار حولها كل ذلك النقاش، فليس بمقدور أي إنسان أن يحقق إرادته بعيدًا عن إرادة الله ومشيئته، فسير السفن في البحار وإقلاع الطائرات في الجو وإطلاق المركبات الفضائية والصواريخ العابرة للقارات كل ذلك مرهون بمشيئة الله التي هيأت الأجواء لكل هذه الحركة، ولولا ذلك لتوقفت الحياة والسفر والتنقلات من بلد إلى بلد، بل إن الله هو الذي هدى العقل البشري إلى صناعة وسائل النقل ووسائل التقنية، ولولا أن الله منحه ذلك لما وصل البشر إلى ما وصلوا إليه من التطور المادي والحضاري بل حتى الفكري والسياسي...الخ؛ لأن كل تطور هو نتاج الفكر والتفكر في آيات الله الكونية ومخلوقاته البديعة إبداعًا مطلقًا على غير مثال سابق.

إذن هذه الجملة على قصرها وكلماتها المحدودة حددت بأسلوب واضح مكانة الإنسان في سياق هذا الكون الواسع، وعلى الرغم من أهمية الإنسان ومكانته عند الله؛ بيد أن تصرفاته محكومة بمشيئة خالقه، وإلا لو أطلق له العنان لعاث في الأرض فسادًا.

وفي الآية الرابعة : أبدأ بكلام المفسرين حول الآية:

يقول البقاعي: «﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ﴾ أي: ﴿كُلّٞ﴾ من الشاكر والكافر، ﴿يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦۖ﴾ أي طريقته التي تشاكل روحه وتشاكل ما طبعناه، عليه من خير أو شر ﴿فَرَبُّكُمۡ﴾ أي فتسبب عن ذلك أن الذي خلقكم ودرجكم في أطوار النمو، لا غيره ﴿أَعۡلَمُ﴾ مطلقاً ﴿بِمَنۡ هُوَ﴾ منكم ﴿أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾ أي أرشد وأقوم، فيشكر ويصبر احتساباً فيعطيه الثواب، ومن هو أضل سبيلاً، فيحل به العقاب»(١).

وكما يقول ابن عاشور: «فإن الجزء الأول من الآية يجري مجرى المثل،

(١) نظم الدرر، ج٥ ، ص ٩٨.

والجزء الثاني كلام جامع لتعليم الناس بعموم علم الله »[1].

ويقول الإمام الرازي: «المراد أن كل أحد يفعل على وفق ما شاكل جوهر نفسه ومقتضى روحه، فإن كانت نفسه نفساً مشرقةً خيِّرةً طاهرةً علويةً؛ صدرت عنه أفعال فاضلة كريمة، وإن كانت نفسه نفساً كدرةً نذلةً خبيثةً مضلةً ظلمانيةً؛ صدرت عنه أفعال خسيسة فاسدة»[2].

وفي كل ما تقدم من المعاني والإيحاءات دلالة واضحة على أن الآية علاوة على ما تتمتع به من إجمال وتركيز إلا أنها في الوقت نفسه تحمل في طياتها معالم البيان واضحة لا عوج فيها ولا أمتا، فالقضيتان اللتان أراد الله إيضاحهما فيها مهما تفننت في التعبير ودققت في اختيار الكلمات وتعمقت في الغوص وراء المعاني؛ فلن تبلغ شأو ما بلغته الآية ولا جزءًا من ذلك، فالجزء الأول من الآية فيه عمومية الفاعل ليشمل جميع العقلاء، وعمومية الزمن كي يشمل الحاضر والمستقبل، ويشمل كذلك المزاوجة بين عمل الروح وعمل العقل وعمل الجوارح، كل ذلك في أربع كلمات، وبأسلوب عربي مبين لا لبس فيه ولا غموض.

وفي الجزء الثاني من الآية وهو مرتبط برباط السببية (الفاء) ومهما تكن أعمالكم واتجاهاتكم وأفكاركم ومسالككم شتى؛ فإن ذلك كله مآله إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم السر وأخفى، فما أخفيتم وما أعلنتم عنده سواء.

وفي ظلال القرآن إشارة لطيفة من وحي هذه الآية، تؤيد هذا المعنى وتضيف سرًّا جديدًا من أسرار التعبير القرآني، وهي قوله: «وفي هذا التقرير تهديد خفي، بعاقبة العمل والاتجاه، ليأخذ كلٌّ حذره، ويحاول أن يسلك سبيل الهدى ويجد

(١) انظر التحرير والتنوير، ج٨، ص٢٩٤.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي، ج ١٠، ص ١١٤.

طريقه إلى الله»[(١)].

فالمقاطع الأربعة تمثل مساحة واسعة من آيات القرآن، وهي الآيات التي شكلت قوانين الكون ونواميسه وتقاريره القاطعة في الإنسان والكون والحياة، من مثل قوله تعالى في الإنسان: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۗ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٨].

وقوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله في الكون: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٥٩].

وقوله تعالى في الحياة: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥].

وهذه التقارير تشكل جزءًا كبيرًا من الدراسات القرآنية عند المفسرين وعلماء الإعجاز والبلاغة القرآنية، وحسبنا هذه الإشارات الموجزة للبرهنة على مكانة أسلوب القرآن البياني، وتميزه من خلال بينة البيان والإجمال في أسلوب النص القرآني.

وهذا أمر واضح تشكله التقارير القرآنية التي أشرنا إلى جزء منها في الآيات الآنفة الذكر، وغيرها من الآيات التي جسدت أسلوب البيان بتعبير إجمالي واضح، وهو أسلوب تميز به القرآن الكريم دون غيره من النصوص الإبداعية، التي شكلت البيان العربي على مدى سبعة عشر قرنًا هي عمر الثقافة العربية بروافدها الإبداعية المختلفة من قرآن وشعر ورسائل وخطب وحكم وأمثال وقصص وغيرها.

---

(١) في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٤٢.

الخاتمـــة

وعقب هذا التجوال في بينات الأسلوب القرآني أختم البحث بالحديث عما توصلت إليه من النتائج التي اهتديت إليها أثناء تفحصي للأسلوب القرآني وقراءة النصوص، وإمعان النظر في بنائها التركيبي وصيغها الأسلوبية وما ترتب على ذلك من النتائج الدلالية.

وقد كشفت لي هذه القراءة عن النتائج الآتية:

أولاً: أن القرآن نسيج وحده، وفيه من البينات الأسلوبية ما ليس في كلام فصحاء العرب؛ شعرهم ونثرهم، حيث لا تنطبق عليه سمات الشعر ولا سمات النثر التي تعرَّف عليها علماء العربية ونقاد الشعر، ومن ثم فالقرآن متفرد في تسميته، متفرد في خصائصه، متفرد في منهجه.

ثانيًا: تنوع أساليب القرآن في الموضوع الواحد سمة لا تخطئها عين الناقد البصير والقارئ المستنير، وكان لهذا التنوع أثره البالغ على قريش وسائر العرب خاصة، وعلى من أتى بعدهم واعتبر بمواقفهم عامة.

ثالثًا: أن الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ليس وحده في ميدان معركة الحوار والإقناع والتأثير، بل دخلت في ساحة الحوار أنواع أخرى من الإعجاز؛ ليس آخرها الإعجاز العلمي والعددي، والزمن وتطور العلم كفيلان بكشف أنواع أخرى من الإعجاز، وبذلك انتشر القرآن في أصقاع الأرض وحمله المسلمون وغير المسلمين إلى قارات الأرض جميعًا.

رابعًا: رسَّخت هذه الدراسة في ذهني بالدليل القاطع والبرهان الساطع أن الإبداع القرآني إبداع مطلق، لأنه إبداع على غير مثال سابق: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

ومع أنه بلسان عربي مبين بيد أن أصحاب هذا اللسان المبين وقفوا أمامه عاجزين، ولم يتمكنوا من الإتيان بمثله مجتمعين ولا متفرقين، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من الإبداع القرآني المطلق ومن ثم الإعجاز.

خامساً: أن السياق القرآني يحتمل من الدلالات الإيحائية والتأويل ما لا يحتمله نص آخر .

سادساً: فندت هذه الدراسة – بأسلوب غير مباشر– مزاعم محترفي الدسائس ومثيري الشبهات من المستشرقين والمستغربين، حيث لم يحسن هؤلاء قراءة النص القرآني، وأنى لهم ذلك! وهم لم يتقنوا قراءة القرآن ولم يتثقفوا بثقافته ولم يرتووا من لغته، ومن ثم لم يدركوا أبعاده وأساليبه وسماته التركيبية.

ولذلك نزلت الشبهات على قلوبهم بردًا وسلامًا، وأشربتها عقولهم سُمًّا زعافًا، وأزعم أن الدراسة قد كشفت عن شيء من خصائص جمال الخطاب القرآني –صوتًا وصياغةً وصورةً ودلالةً وإيقاعًا–، وهو جهد متواضع آمل أن يضاف إلى جهود من سبقني من الباحثين.

سابعاً: من وحي هذه الدراسة ربما ندرك أن القرآن انسجم انسجامًا تامًّا مع العقل البشري والفطرة الإنسانية، وهذا إن دل على شيء إنما يدل أن كلًّا من العقل والفطرة والقرآن من مصدر واحد.

ثامناً: هذه الدراسة محاولة من ضمن محاولات كثيرة هدفها التركيز على قراءة النصوص كيفًا لا كمًّا، حيث لم تعد القراءة الانطباعية ولا قراءة البنية السطحية للنص كافيتين في فهم النص واستيعاب حقائقه، ومن ثم نشأ سؤال كيف تقرأ؟ وعلى أثره جاءت القراءة الموضوعية وقراءة البنية العميقة للنص.

تاسعًا: ومن وحي هذه الدراسة أيضًا ومن خلال النتاج الدلالي للنصوص

تبين لنا أن القرآن يعد أغزر مصدر من مصادر الفكر الإنساني.

إذ ما من موضوع يتعلق بالإنسان أو الكون أو الحياة إلا وله فيه حديث تصريحًا أو تلميحًا، تفصيلًا أو ترميزًا أو إشارةً؛ ولذلك أصبح القرآن مصدرًا رئيسًا لكل العلوم الإنسانية أو الطبيعية أو الكونية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

١- **القرآن الكريم.**

٢- **الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم**، محمد كريم الكواز،ط ٢، من منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية -طرابلس- ليبيا.

٣- **الأسلوب**، لأحمد الشائب: دراسة بلاغية تحليلية، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ، ط ٧ ، سنة ١٩٧٦م.

٤- **الأسلوب والأسلوبية** ، بير جيروت منذر العياشي، مركز الإنماء القومي- بيروت.

٥- **الأسلوبية والأسلوب**، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب - تونس، ١٩٩٧م.

٦- **إعجاز القرآن** ،لأبي بكر الباقلاني، ت:سيد أحمد صقر، دار المعارف مصر.

٧- **إعجاز القرآن** ، للرافعي ، دار الكتاب العربي، بيروت ،ط٣ ، ٢٠٠٥م.

٨- **بدائع الفوائد** ،لابن القيم ، ط الأولى، ٢٠٠٥م ، دار ابن حزم ، بيروت.

٩- **البرهان في علوم القرآن**،بدر الدين الزركشي، دار الحديث، القاهرة، ت: أبو الفضل الدمياطي ، سنة ٢٠٠٦م.

١٠- **تاج العروس في جواهر القاموس** ،محمد مرتضى الزبيدي، ت: عبد الستار فراج، دار إحياء التراث الإسلامي- بيروت.

١١- **تاريخ النقد عند العرب**، إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط٢ ، عمان- الأردن، ١٩٨٦م.

١٢- **التحرير والتنوير** ،محمد الطاهر بن عاشور ،دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس.

١٣- **التصوير الفني في القرآن** ، سيد قطب ، دار الشروق القاهرة، ط١٦ ، سنة ٢٠٢م.

١٤- **التعبير القرآني** ، د. فاضل السامرائي، ط٣ ، سنة ٢٠٠٤ ، دار عمار – عمان الأردن.

١٥- **التفسير المنير** ، وهبة الزحيلي ، ط ٢ - ١٤١٨م ، دار الفكر العربي دمشق.

١٦- **التفكير النقدي عند العرب**، عيسى العاكوب ،ط٦، سنة ٢٠٠٨م، دار الفكر المعاصر بيروت.

١٧- **الجامع لأحكام القرآن**، للقرطبي، ط٢، دار إحياء التراث العربي-بيروت شاكر١٩٨٥م.

١٨- **دراسات في النص الشعري** ، عبده بدوي ، دار قباء الحديثة ، القاهرة -٢٠٠٧م.

١٩- **دلائل الإعجاز**، لعبد القاهر الجرجاني، ت:محمود شاكر، مكتبة الخنجي، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٤م.

٢٠- **ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي** ، ت: عبده عزام، ط٥، دار المعارف - بيروت.

٢١- **روح المعاني** ،لشهاب الدين الألوسي، ط١، ١٩٩٤م، دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٢- **شرح المعلقات السبع** ، للشنقيطي، دار المعرفة - بيروت ، ط٣ ، سنة ٢٠٠٧م.

٢٣- **الشعرية العربية** ، لجمال الدين بن الشيخ ، دار تبقال للنشر، ط ٢، الدار البيضاء- المغرب.

٢٤- **صيد الخاطر** ، عبد الرحمن ابن الجوزي، المكتبة العلمية، بيروت (د.ت).

٢٥- **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة** ، يحي بن حمزة العلوي ، ط الأولى، ١٩٩٥م ، دار الكتب العلمية – بيروت.

٢٦- **ظواهر أسلوبية في الشعر الحديث في اليمن** ،دراسة وتحليل: د. أحمد قاسم الزمر، إصدار وزارة الثقافة في اليمن، ٢٠٠٤م.

٢٧- **علامات** ، ج٤٤، م ١١، سنة ٢٠٠٢م.

٢٨- **علم لغة النص** ، سعيد بحيري، ط١، ٢٠٠٤م، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع.

٢٩- **العمدة في صناعة الشعر**، لابن رشيق القيرواني، ط٥، دار الجيل بيروت، ١٩٨١م، ت: محمد محي الدين عبد الحميد.

٣٠- **التفسير شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي** ، لأبي الفتح ابن جني (د.ت).

٣١- **في ظلال القرآن** ، لسيد قطب ، ط١١، سنة ١٩٨٥م، دار الشروق القاهرة.

٣٢- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل** ، تأليف: محمود بن عمر الزمخشري ، دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٨٦م (ت.د).

٣٣- **لسان العرب** ، لابن منظور الإفريقي، ط١، دار صادر-بيروت.

٣٤- **لمسات بيانية في نصوص من التنزيل**، د.فاضل السامرائي، دار عمار- بيروت ، ط٣، سنة ٢٠٠٣م.

٣٥- **مجمع الأمثال**، لأبي الفضل الميداني، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٥م.

٣٦- **مدخل إلى علم النص**، تأليف: زتسيسلاف، ت: سعيد البحيري، ط١، سنة ٢٠٠٣م، دار المختار للنشر والتوزيع – القاهرة.

٣٧- **مشكلة الحرية** ، د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، دار الطباعة الجديدة، ط٢، سنة ١٩٦٣م.

٣٨- **مفتاح العلوم** ، لأبي يعقوب السكاكي، ت: عبد الحميد هنداوي ، ط١، سنة ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية – بيروت.

٣٩- **من جماليات التصوير في القرآن الكريم** ، محمد قطب عبد العال، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٦م.

٤٠- **من روائع القرآن** ، محمد سعيد رمضان البوطي، ط ١، ٢٠٠٣م، مؤسسة الرسالة بيروت.

٤١- **مناهل العرفان** ،للزرقاني ، دار المعرفة- بيروت، ط١، ١٩٩٩م.

٤٢- **الموازنة بين الطائيين**، للآمدي ، دار المعارف، القاهرة، ت:السيد صقر- ١٩٦٥م (د.ت).

٤٣- **النبأ العظيم** ، د. محمد عبدالله دراز ،ط ١٠، سنة ٢٠٠٨م، دار القلم للنشر والتوزيع.

٤٤- **نظرية النظم وقراءة الشعر** ، د. محمود توفيق.

٤٥- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، لبرهان الدين البقاعي، ط١، دار المعارف العثمانية حيدر أباد – الهند.

٤٦- **نهاية الأرب في فنون الأدب** ، لشهاب الدين النويري- نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب (ت.د).

٤٧- **هكذا تكلم النص** ، د. محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.

٤٨- **الوساطة بين المتنبي وخصومه** ، للقاضي الجرجاني، المكتبة العصرية-بيروت ١٩٦٦م ، ت: محمد أبو الفضل (ت.د).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص.....	٢٥٧
المقدمة	٢٥٨
التمهيـــد	٢٦٠
أهم البينات الأسلوبية في القرآن	٢٦٤
البينة الأولى: التنوع في الأساليب والبراعة في أفانين القول.	٢٦٤
أولاً : صيغ الأمر	٢٦٤
ثانيًا : صيغ النهي	٢٦٧
البينة الثانية: النظام الصوتي وجمال التنسيق	٢٧٠
البينة الثالثة: مخاطبة العقل والعاطفة معاً	٢٧٦
البينة الرابعة: الأسلوب وإحكام التأليف	٢٨٣
البينة الخامسة: الجمع بين البيان والإجمال	٢٩٢
الخاتمة	٢٩٨
فهرس المصادر والمراجع	٣٠١
فهرس الموضوعات	٣٠٤